المرشد المعين

في بيان حقيقة الدين

أعده

أبو الفضيل ناصر الدين بن عبد الرحمن النعيمي

جمادى الأولى ١٤٣١

مكتبة دار الحنفاء

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

يقول الحق تبارك وتعالى: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)." الأنبياء:٩٢". أي دينكم واحد، ومعبودكم واحد، فلَمَ تختلفون. ومع أن الدين واحد، والرب واحد، وليس هناك داعٍ للاختلاف، إلا أنه قد حدث الاختلاف والتفرق، والأدهى من ذلك أن كل فرقة من هؤلاء الضالين المختلفين فرحون بباطلهم، مطمئنون إليه، معتقدون أنه الحق.

وقال الله عز وجل: (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)." المؤمنون:٥٢:٥٣".

وقال تعالى: (وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) (الروم:٣٢)

وقد ذكر الله عز وجل فرحتهم بباطلهم واطمئنانهم إليه في مقابلة ما جاءت به الرسل، فقال: (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) " غافر:٨٣".

ولكن فرحتهم هذه لم تدم بل سرعان ما تغيرت أسفا وندما لما عاينوا حقيقة الأمر وأدركوا أن ما فرحوا به لا يغني عنهم شيئا، (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِين) "غافر:٨٤"

فتأمل جيداً في فرحتهم وهم يردّون دعوة التوحيد بشُبَهٍ من القول، ويستدلون على باطلهم بأن هذا ما كان عليه الآباء والأجداد، وأن أكثر الناس يدينون به، وأنهم لم يسمعوا به في الملة الآخرة، ثم تأمل قولتهم واعترافهم بصدق الرسل وإقرارهم بالتوحيد لما رأوا عذاب الله، فاعترفوا له بالوحدانية وكفروا بكل ما يعبدون من دونه وهو قولهم: (آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِين). وهذه هي حقيقة الإيمان الذي دعاهم رسل الله إليه ولكنهم أقروا بها بعد فوات الأوان فردها الله عليهم و لم يقبلها منهم، (فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) (غافر:٨٥)

وقد كان الناس مختلفين فيما بينهم أشد الاختلاف عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، مفارقين لملة التوحيد، مبتعدين عن الله وتوحيده كل الابتعاد، لكل قوم طاغوت يعبدونه من دون الله، ومع هذا التفرق والاختلاف،

فالكل يزعم أنه على حق وغيره على باطل، فكفار قريش ومن دان بدينهم يزعمون أنهم على ملة إبراهيم ، وكذلك اليهود والنصارى يزعمون ذلك.

فبعث الله عز وجل رسوله محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس جميعا، يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك الشرك به، وأوصاه بإتباع ملة إبراهيم، فقال سبحانه: (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) النحل:١٢٣. وأخبر سبحانه أن خليله إبراهيم عليه السلام بريء ممن انتسب إليه من المشركين واليهود والنصارى، (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (آل عمران:٦٧)

وأمر الله نبيه بالبراءة ممن خالف الدين الحق، وفارق ملة التوحيد وإن ادعى أنه على ملة إبراهيم، فقال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) الأنعام:١٥٩

وقد عرف كفار قريش حقيقة ما يدعو إليه خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم وما يريده من الناس جميعا، وأنه يأمر بعبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، والموالاة على ذلك والمعاداة فيه، وظل صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وعشرين سنة أو نحوها يبين للناس أمر دينهم ويبلغهم رسالة ربهم، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وأتم الله به نعمته على خلقه، وأقام به حجته عليهم، وأظهر به دينه على الأديان كلها، وما مات صلى الله عليه وسلم حتى ترك أصحابه على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، وترك بعده ما إن تمسك به الناس فلن يضلوا أبداً، كتاب الله الكريم يُتلى طريّاً كأنه اليوم أنزل، وسنةً مطهرةً سخر الله لها من الرجال الأمناء من بلّغها إلى الأجيال من بعده إلى يومنا هذا، وكانت رسالته آخر الرسالات، فلا رسول ولا نبي بعده ولا كتاب.

وظلت الأمة متمسكة بهذين النورين قرنين من الزمن بعد قرنه صلى الله عليه وسلم ، وظل الدين الحق ظاهراً على ما سواه، وكلمة الله هي العليا، إلى أن جاء وعد الله وقدره المقدور، ونزل البلاء بما كسبت أيدي الناس، وتمزقت الأمة كل ممزق، وابتعد الناس عن الحصن الحصين كتاب الله عز وجل، وعظموا ما سواه من أقوال الرجال، وكلام أهل الفلسفة والزندقة، وتشبهوا بأهل الكفر والفساد، واقتفوا آثار أهل الكتاب، فقلَّ العلم وأهله المتمسكون به، وظهر الجهل، وفشت البدع، وانتشر الفجور، وعاد الدين غريبا كما بدأ.

فطوبى لمن هداه الله لمعرفة الحق والتمسك به، ووفقه للاعتصام بحبله المتين، فهو حبل النجاة، وسبيل الهدى والصلاح.

ولما كان الحديث في هذا المقام حول بيان التوحيد ومعنى كلمة الإخلاص، فلا شك أن الاعتماد على الكتاب والسنة خير ما يحتج به المتكلم في هذا المقام، خصوصاً إن استعان بما بينه سلف الأمة الأخيار، وكان له في كل ما يقول قدوة صالحة، وحجة قوية.

وسوف نبين بإذن الله في هذا البحث حقيقة الدين الحق ومعنى كلمة الإخلاص وكيفية الإيمان بها، بشيء من الإيجاز والاختصار، ومن أراد المزيد من البيان ومواصلة المشوار فسوف يجد ذلك في رسائل أخرى إن شاء الله تعالى. والله الموفق للهدى والسداد.

الفصل الأول

في بيان معنى كلمة التوحيد لا إله إلا الله

يقول الحق تبارك وتعالى: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ)(البقرة: من الآية٢١٣) . وقال تعالى: (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)(يونس: من الآية١٩).

كان الناس في بدء الخليقة أمة واحدة، على دين واحد، يعبدون الله ولا يشركون به شيئا، واستمروا على ذلك عشرة قرون إلى عهد نوح أول المرسلين.

وأول ما حدث الشرك في عهد نوح بسبب الغلو في الصالحين حتى عبدوهم مع الله عز وجل، فلما انتشر الشرك واختفى التوحيد، وساد الجهل، وتنسَّخ العلم، ووقع الناس في الضلال، بعث الله عز وجل نوحاً عليه السلام يدعو الناس إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، فكان عليه السلام أوَّل من بُعث بلا إله إلا الله، وأول من قال (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)." الأعراف: من الآية٥٩".

وكانت دعوته تتمثل في ترك عبادة الأصنام والآلهة المزعومة، والكفر بها، والبراءة ممن عبدها، والرجوع إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

وقد بين الله عز وجل في كتابه أن أصل الدين الذي جاءت به جميع الرسالات واحدٌ لا يتغير ولا يتبدل، قال تعالى: (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)." المؤمنون:٥٢". أي ملتكم مله واحدة، وقال تعالى: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)." الشورى: من الآية١٣".

فدين الأنبياء واحد وهو دين الإسلام، وإن تنوعت الشرائع واختلفت من نبي إلى آخر، وذلك لأن الأصل الذي هو أساس الإسلام وحقيقته ثابت لا يتغير، وهو الإخلاص في عبادة الله وترك عبادة ما سواه، وهذا هو مدلول كلمة الإسلام لا إله إلا الله، التي بعث بها جميع المرسلين، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)." الأنبياء:٢٥".

ولاشك أن معرفة هذا الأصل والإيمان به من أعظم الضروريات وأول الواجبات، فهو الأمر الذي خلق الله العباد من أجله، وأرسل الرسل وأنزل الكتب لبيانه والدعوة إليه، وهو الذي وحَّد بين المسلمين من عهد آدم إلى قيام الساعة، وجعلهم أمة واحدة باجتماعهم عليه وتحقيقهم له، وهو الذي فرَّق بينهم وبين الكافرين في الدنيا والآخرة.

فأصغِ بسمعك، وأحضر قلبك، وتدبر وتأمل فيما ستقرؤه حول هذا الأصل العظيم:

يقول الحق تبارك وتعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)." الأنبياء:٢٥".

فما بعث الله رسولا إلا بكلمة التوحيد لا إله إلا الله ، وقد بيَّن الله معناها في قوله: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)." النحل: من الآية٣٦". فهذه الآية تبين ما بعث الله به جميع المرسلين، فهي بيان واضح لمعنى كلمة الإخلاص لا إله إلا الله.

وقد اشتملت هذه الكلمة على ركنين: النفي والإثبات، ولا يمكن أن يتحقق أحدهما بدون الآخر.

ومعنى الإله هنا هو المعبود، أي لا معبود بحق إلا الله عز وجل.

فمعنى النفي في هذه الكلمة " لا إلـــه" جاء تفسيره في الآية السابقة بقوله: (وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).

ومعنى الإثبات " إلا اللـــه" بيَّنه قوله تعالى: (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ).

وقد ورد معنى هذه الكلمة كثيراً في كتاب الله:

كقوله تعالى:(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)." البقرة: من الآية٢٥٦".

وقوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ)." الزخرف:٢٦:٢٧".

وقوله عز وجل: (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)." هود: من الآية٢".

وقوله: (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)." الأعراف: من الآية٧٠".

ومن خلال ما سبق نعلم أن كلمة التوحيد تشتمل على ركنين هما:

الركن الأول: { لا إلـــه }

ومعناه: نفي الإلهية عما سوى الله أو الكفر بالطاغوت أو الكفر بما يعبد من دون الله أو ترك واجتناب عبادة ما سوى الله، والبراءة منها، ومن أهلها. كل ذلك بمعنى واحد.

الركن الثاني: { إلا اللـــه }

ومعناه: إثبات الألوهية لله وحده أو الإيمان بالله وحده أو عبادة الله وحده أو إخلاص جميع أنواع العبادة لله وحده. وكل ذلك بمعنى واحد.

ولهذا فإن مدلول لا إله إلا الله هو توحيد الألوهية، أي توحيد العبادة.

الركن الأول من كلمة الإخلاص (لا إله)

الكفر بالطاغوت أو الكفر بما يعبد من دون الله.

اعلم – رحمك الله – أن لله حقاً خالصا لا يشاركه فيه أحد من مخلوقاته، مهما كانت مرتبته عند الله، فالله سبحانه وتعالى هو المتفرد بالخلق والرزق والملك والحكم والسيادة والتدبير، وكل ما سواه مخلوق مربوب عبد خاضع له وحده، قد أسلم له من في السماوات والأرض طوعا وكرها، فكما أن الخلق والملك والأمر والحكم والهيمنة والسيادة لله وحده ينبغي أن تكون العبادة له وحده دون سواه.

قال تعالى: (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)." آل عمران:٨٣".

فمِن حقِّ الله الخالص أن يُعبد وحده ولا يشرك به شيئا، وأساس العبادة الحب مع التعظيم والإجلال والرغبة والرهبة والتذلل والخضوع، ولا ينبغي ذلك إلا لله وحده. ومن العبادة الدعاء والصلاة والذبح والنذر والطواف والاعتكاف والخوف والرجاء والتوكل والإنابة، والحكم بما أنزله، والتحاكم إليه.

ومن حقه سبحانه أن يكون الدين خالصا له وحده، قال تعالى: (وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُون * وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)." النحل:٥١ :٥٢". فقوله تعالى: (وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً) أي له الطاعة والإخلاص دائما ثابتا واجباً، وقال تعالى: (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)." الزمر:١١".وقد فسر الدين بالطاعة غير واحد من الصحابة ومن بعدهم، فليس لأحد حق في أن يُدان له، ويُطاع ويُستسلم لأمره وحكمه إلا الله الواحد القهار.

ومن حقه سبحانه أن يكون الحكم له وحده، يأمر عباده بما يشاء، وينهاهم عما يشاء، ويحلل لهم ويحرم عليهم ما يريد، لا معقِّب لحكم، ولا راد لقضائه، ولا معارض لأمره، ولا مشرع من دونه، قال تعالى: (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)." لأعراف: من الآية:٥٤". وقال: (أَلا لَهُ الْحُكْمُ)." الأنعام: من الآية:٦٢". وقال سبحانه: (وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)." الكهف: من الآية:٢٦". وقال عز وجل: (وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)(الرعد: من الآية٤١). (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (الأنعام:١١٥)

فليس لأحد من خلق الله من الأمر من شيء، قال تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ)." آل عمران: من الآية:١٢٨". وقال عز وجل: (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي)." يونس: من الآية:١٥". وقال: (إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ)." الشورى: من الآية:٤٨".

وليس لأحد أن يغير شيئاً من شريعة الله، ولا أن يحلل ما حرمه الله أو يحرم ما أحله، أو يسقط ما أوجبه، أو يشرع شيئا لم يأذن به سبحانه، أو يحكم بغير ما أنزله.

وكل ما كان حقا خالصا لله فلا يجوز أن يشاركه فيه أحد من مخلوقاته، لا نبيٌّ ولا مَلَك ولا شيخ ولا ولي ولا أمير ولا حاكم.

واعلم ــ أرشدك الله ــ أن معرفة الله عز وجل هي أساس الدين كله، ولا يعرف الله من لا يقدره حق قدره، ولا يكون العبد عارفاً بربه مؤمناً به وحده حتى يميز بين ما هو من حق الله وحده ولا يشاركه فيه أحد من خلقه؛ وبين ما هو من صفات المخلوق الفقير الضعيف.

وإن أجهل الناس من سوَّى بين الرب الواحد القهار وأحد مخلوقاته، أو رفع مخلوقاً ضعيفاً إلى منزلة من بيده ملكوت كل شيء، أو ظن أن الله محتاجٌ إلى أحد من خلقه ليدبر ملكوته وينظم شئون عباده.

فإذا عرفت ما تفرد به الله عن مخلوقاته، وعلمتَ حقه الخالص الذي لا يشاركه فيه أحد من خلقه، وعلمت الفرق بين الرب المعبود وبين المخلوق العبد المربوب، علمتَ بيسر وسهولة ما نفته كلمة التوحيد، ويمكنك الآن أن تعرف الطاغوت الذي جعل الله عز وجل الكفر به الركن الأول من التوحيد، ولا يصح للعبد توحيد بدونه.

حيث أن الطاغوت مشتق من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، فكل ما سِوَى الله مخلوق مربوب لله وحده، ولا يمكن أن يخرج عن حد العبودية لخالقه، ويستحيل أن يشارك ربه في شيء من خصائصه، فمتى جاوز العبد هذا الحد، وادعى لنفسه شيئا من خصائص الإلهية، فهو الطاغوت الذي يجب الكفر به واجتناب عبادته.

فكل معبود أو مطاع أو متبوع من دون الله وفي غير طاعة الله فهو طاغوت، إن كان قد رضي بالعبادة من دون الله.

وقد تنوَّعت كلمات السلف وتعريفاتهم للطاغوت وأنواعه، نذكر هنا تعريفاً جامعاً:

تعريف الطاغوت:

هو كل معبود أو مطاع أو متبوع من دون الله وهو راضٍ بذلك، وكل ما صرف الناس وصدهم عن عبادة الله وإخلاص الدين له وحده، وكل من ادعى لنفسه شيئا من خصائص الله.

أنواع الطاغوت:

١. *طاغوت عبادة*: وهو كل ما صُرف له عبادة من دون الله، ويدخل في ذلك الأصنام التي تعبد من دون الله من شجر أو حجر أو قبر أو بئر أو بقعة أو مشهد أو إنسان أو شيطان. فالخلق كلهم من الجن والإنس والحيوان والجماد عبد لله عز وجل فإذا عبد شيء منها مع الله فهو طاغوت.

قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون) (الذريات:٥٦)
وقال عز وجل: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (التوبة: من الآية٣١)

٢. *طاغوت طاعة*: وهو كل من جعل الناس أمره مطاعاً كأمر الله، وقدموا طاعته على طاعة الله ورسوله، وكل من أُطيع أو اتُّبع في مخالفة دين الله، وكل من تحوكم إليه غير الله ورسوله، ويدخل في ذلك العلماء والحكام وشيوخ القبائل والرؤساء المبدلين لشريعة الله، وسدنة الأصنام والأوثان.

قال تعال: (وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّه)(آل عمران: من الآية٦٤).

وقال سبحانه: (وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (آل عمران:٨٠)
وقال: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّه)(التوبة: من الآية٣١)

٣. *طاغوت حكم*: وهو كل من شرع للناس شيئا لم يأذن به الله، أو غيَّر وبدل شيئا من شريعة الله، وجعل ما شرعه وسنَّه قانوناً متبعاً وأمراً ملزماً، وكل من حكم الناس بغير شريعة الله، أو حاكمهم لغير الكتاب والسنة، ويدخل في ذلك من سن هذه القوانين الوضعية اللعينة، أو حكم بها، أو مدحها ودعا إليها.

قال جل وعلا: (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)(لأعراف: من الآية٥٤). وقال تعالى:
(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)(الكهف: من الآية٢٦) وقال تعالى: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ)(الشورى:من الآية٢١)

وهذا التقسيم المذكور للبيان والإيضاح فقط، حسب الطواغيت الموجودة في الواقع.

ورأس الطواغيت جميعا هو الشيطان، فهو رأس الشر كله وهو الذي بذل جهده وجميع طاقته في صد الناس عن دين الله ليعبدونه من دون الله، قال تعالى: (وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّه)." النساء من الآية:١١٨:١١٩".

وأشدهم خطراً على دين الله بعد الشيطان الرجيم العلماء والشيوخ المحللون لما حرم الله والمحرمون لما أحله، الذين يُفتون الناس بما يخالف دين الله، ويصدوهم عن الرجوع إلى الكتاب والسنة، ويلبسون على الناس دينهم، ثم الحكّام المغيرون لشريعة الله، المحاربون لدينه، والذين يبغونها عوجاً، والمشرعون لما لم يأذن به الله، والحاكمون بغير شريعته من القوانين الوضعية وأحكام أهل الكفر والإلحاد والجاهلية، والله أعلم.

فكل هؤلاء لا يتم ولا يصح الإيمان بلا إله إلا الله إلا بالكفر بهم والبراءة منهم كما سنبينه إن شاء الله.

فالعبادة لله وحده، وكل ما عُبد من دونه فهو طاغوت وجب الكفر به.

والطاعة لله وحده، وكل متبوع ومطاع فيما يخالف أمره وشرعه فهو طاغوت وجب الكفر به.

والدين لله وحده، وكل من دان له الناس واستسلموا له من دون الله فهو طاغوت وجب الكفر به.

والحكم والتشريع والأمر والنهي لله وحده، وكل مشرع سواه، أو حاكم بغير شريعته، أو آمر بمعصيته ومخالفة دينه، فهو طاغوت وجب الكفر به.

والتحليل والتحريم لله وحده، وكل محلل لما حرم الله، أو محرم لما أحله، فهو طاغوت وجب مخالفته والكفر به.

وعلم الغيب لله وحده، وكل من ادعى أنه يعلم شيئا من علم الغيب، فهو طاغوت وجب تكذيبه والكفر به.

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو :

كيف يتم الكفر بما يعبد من دون الله؟

والجواب على ذلك جاء واضحاً جلياً في كتاب الله فكان فيه غُنية عما سواه.

قال تعالى: (وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)(النحل: من الآية٣٦) وقال عز وجل: (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا)(الزمر: من الآية١٧) وقال سبحانه: (يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ)(النساء: من الآية٦٠) فهذه الآيات تدل على أن الكفر بالطاغوت هو اجتناب عبادته.

وقال تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)." الممتحنة: من الآية٤".

ففي هذه الآية بيان واضح لما ينبغي أن يكون عليه كل مسلم تجاه الكفار والمشركين ومعبوداتهم من دون الله.

فالركن الأول من شهادة التوحيد وهو الكفر بالطاغوت أو بما يعبد من دون الله، يتحقق بما يأتي:

١. اعتقاد بطلان عبادة غير الله، وكل معبود سوى الله .
٢. ترك عبادة غير الله وبغضها وإنكارها .
٣. البراءة ممن عبد غير الله .

وإليك شرح هذه الأمور الثلاثة :

الأمر الأول: اعتقاد بطلان عبادة غير الله، وكل معبود سوى الله

أن تعتقد أن كل معبود غير الله عز وجل باطل لا يستحق شيئا من العبادة بل هو عبد مخلوق لله الواحد القهار، وتعتقد أن كل عبادة صُرفت لغير الله باطلة وضلال وشرك بالله عز وجل، وتعتقد أن كل منهج ودين يخالف دين الإسلام، وكل تشريع لم يأذن به الله فهو كفر بالله عز وجل وضلال وجاهلية.

والدليل قوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ)." لقمان: من الآية:٣٠".

وقوله تعالى: (فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ)." يونس: من الآية:٣٢".

وقال عز وجل: (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)." آل عمران:٨٥".

وقال تعالى: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ)." المائدة: من الآية:٥٠". فكل حكم سوى أحكام الله فهو حكم الجاهلية.

وقال: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)." الجاثـية:١٨". فما كان من عند الله فهو شريعة الله ودينه الذي ارتضاه، وما سواه فأهواء قوم لا يعلمون.

ومثال المعبودات والمناهج الباطلة في واقعنا المعاصر:

الأضرحة والقبور والمشاهد التي يعتقد في أهلها الولاية والشفاعة والنفع والضر وتدعى مع الله ويذبح لها ويتبرك بها ويستشفى ويستسقى بها ويصرف لها ما هو من حق الله الخالص.

الحكام المبدلين لشريعة الله المشرعين لما لم يأذن به.

القوانين الوضعية التي يحتكم إليها من دون شريعة الله والتي جُعلت ندا لأحكام الله

الأديان المخالفة للإسلام كالعلمانية والديموقراطية واليهودية والنصرانية والماركسية والبوذية وغير ذلك.

فلا بد من اعتقاد أن كل ما عبد من دون الله باطل وعبادته كفر بالله، وأن ما خالف دين الإسلام باطل واتباعه أو الرضا به كفر بالله.

الأمر الثاني: ترك واجتناب عبادة غير الله وبغضها وإنكارها

فلا يكفي اعتقاد بطلان عبادة غير الله بل لابد من اجتنابها والابتعاد عنها بالكلية وبغضها وإنكارها بالقلب بغضا شديدا.

قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)." الأنعام: من الآية١٩". ففيها البراءة من الشرك.

وقال تعالى: (وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)." النحل: من الآية:٣٦". فيها الأمر باجتناب ما يعبد من دون الله.

وقال تعالى: (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ) (الزمر:١٧)

وفيها أن اجتناب الطاغوت يعني اجتناب عبادته.

وقال سبحانه: (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ)." المدثر:٥". الرجز: الأصنام، وهجرها تركها والبراءة منها.

وعن جَابِرُ بن عبد اللَّهِ قال سمعت رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يقول ((من لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شيئا دخل الْجَنَّةَ وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دخل النَّارَ)) رواه مسلم . وفيه تحذير شديد من الوقوع في عبادة شيء من دون الله وهو معنى (يشرك به).

وقال عز وجل: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ)." آل عمران: من الآية:٦٤". وفيها اشتراط ترك الشرك ليكون الرجل مسلما.

وذكر الله عز وجل من حال المشركين أنهم يكْبُر ويَعْظُم عليهم ترك الشرك بالله؛ لأنهم يحبونه أشد الحب وتنشرح له صدورهم وقد اعتادوه وألفوه عن آبائهم وأجدادهم.

قال تعالى: (كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ)." الشورى: من الآية:١٣".

وقال تعالى: (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)." الزمر:٤٥".

فلا يكره التوحيد ويبغضه ويستبشر بالشرك ويفرح به إلا مشرك كافر. فلابد من بغض الشرك بجميع أنواعه بغضاً شديداً أشد من بغض ما سواه من المحرمات.

وكذلك لابد من تركه واجتنابه بالكلية، وقد جاءت جميع الرسالات السماوية بالدعوة إلى ترك عبادة غير الله واجتناب ما يعبد من دونه، ولهذا كان التوحيد هو لب الخلاف بين الرسل وقومهم الذين ردوا هذه الدعوة و لم يؤمنوا بها وأصروا على الاستمرار على عبادة غير الله.

كما قال تعالى عن قوم نوح: (وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً)." نوح:٢٣". فود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا أسماء رجال صالحين ماتوا على التوحيد ولكن لغلو قومهم فيهم عبدوهم مع الله، فدعاهم نوح عليه السلام للكفر بهذه الألهة واجتناب عبادتها فأبوا واستكبروا وأصروا على عبادتها من دون الله إلا قليل ممن آمن مع نوح.

وقال قوم هود: (أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)." لأعراف: من الآية:٧٠". وقالوا: (وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ)." هود: من الآية:٥٣". فتأمل هاتين الآيتين تجد أن الرسل كانوا يدعون قومهم لترك عبادة غير الله والتوجه بالعبادة لله وحده وهو حقيقة قول لا إله إلا الله.

وقال كفار قريش: (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً)." صّ: من الآية:٥". فهم دائما ينكرون التوحيد (توحيد الألوهية) الذي لا يتحقق إلا بترك عبادة غير الله والكفر بألوهية ما سواه.

فلا يكفي اعتقاد بطلان عبادة غير الله، بل لابد من بغضها، وإنكارها وتركها واجتنابها بالكلية. وبغير ذلك لا يصح إسلام أحد أبداً.

فمن فعل شيئاً من هذا الشرك الأكبر وتوجه بعبادة لغير الله فقد حبط عمله وصار من المشركين، قال تعالى: (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)." الزمر:٦٥" .

وقال تعالى: {وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ } يونس١٠٦ ، أي المشركين

الأمر الثالث: البراءة ممن أشرك بالله فعبد معه غيره.

مادام الكفر بما يعبد من دون الله هو الركن الأول في كلمة التوحيد، وعرفنا أنه يعني اعتقاد بطلان كل معبود غير الله وأن عبادة غير الله كفر وشرك بالله، ويعني اجتناب هذا الشرك والابتعاد عنه وبغضه وإنكاره؛ فالذي يشرك بالله ويتخذ من دونه معبودا لم يأتِ بهذا الركن بل أتى بنقيضه تماما فكيف يكون مؤمنا بلا إله إلا الله؟! بل الحقيقة أن كافر بها ولو كان ممن يقولها بلسانه ويدعي أنه مؤمن بها، فالإيمان بلا إله إلا الله لا يكون بغير معرفة واعتقاد وقول وعمل.

فمن عبد غير الله واتخذ من دونه إلها وجبت البراءة منه ومما يعبده ويدين به، ولا يتحقق الكفر بما يعبد من دون الله بدون الكفر والبراءة من عابديه.

وتتحقق هذه البراءة بتكفير من أشرك بالله، و لم يأتِ بالتوحيد ودان بغير دين الإسلام، وبغضهم ومعاداتهم.

فلا يصح الإيمان بلا إله إلا الله بغير الكفر بألوهية ما عبد من دون الله، ومن المعلوم أن كل معبود من دون الله له من يعبده ويُصرف له ما لا ينبغي أن يصرف إلا لله وبهذه العبادة صار إلها مع الله، وإذا كان الشرط الأول للإيمان بلا إله إلا الله هو الكفر بهذه المعبودات، فإن الكفر بها لا يتحقق إلا بالبراءة التامة منها ومما يصرف لها من العبادة وممن يعبدها مع الله، يعني لابد من البراءة من المعبود ومن عبادته ومن عابديه، ولا تتحقق واحدة منها دون الأخرى.

فلا يستقيم ولا يصح البراءة من المعبود دون البراءة من عبادته.

ولا يستقيم أيضا ولا يصح البراءة من المعبود وعبادته دون البراءة ممن جعله معبودا وصرف له العبادة من دون الله.

وليست البراءة من المعبود بأولى من البراءة من العابد، وهل يصير العبد المخلوق إلها معبودا إلا بوجود من أشركه مع الله وعبده معه؟!

بل إن الله عز وجل قدم البراءة من العابد على البراءة من المعبود في أكثر من آية من آيات كتابه البينات، قال تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)(الممتحنة: من الآية٤).

وقال تعالى: (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي)(مريم: من الآية٤٨).

وقال تعالى: (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ)(مريم: من الآية٤٩)

وقال عز وجل: (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ)(الكهف: من الآية١٦)

وكما قلنا لايصير العبد المخلوق إلها يعبد مع الله إلا بوجود من يؤلهه ويعبده مع الله، وكمثال لذلك الآلهة التي كانت موجودة في قوم نوح فما هي إلا تماثيل نحتها أناس ربما لم يصلوا إلى الشرك في ذلك الوقت يوم أن نحتوها وبعد موت هؤلاء اتخذها من بعدهم آلهة تعبد كما يعبد الله الواحد القهار، ولولا أولئك المشركون لما صارت آلهة معبودة مع الله ولبقت مجرد تماثيل ترمز لرجال صالحين كانوا فبادوا.

فلو أن رجلا في عهد نوح سمع بما يدعو إليه نوحا عليه السلام فأراد أن يتبعه فترك عبادة غير الله واعتقد أن ما كان يعبده باطل لا يستحق العبادة وأن الله وحده هو المستحق للعبادة، فهل تراه يعتبر نفسه أنه كان على حق في عبادة غير الله؟! هذا لا يستقيم أبدا.

بل الصواب سيعتبر نفسه أنه كان على باطل وضلال في شركه بالله وأن الحق هو توحيد الله وإفراده بالعبادة، وبالتالي سيعتبر من لم يوحد الله واستمر على عبادة غيره أنهم على ضلال وباطل، وسوف يتبرأ منهم كما تبرأ من آلهتهم ودينهم. وهذا ما نقصده بالبراءة من المشركين.

ومثال آخر هذه القبور التي تعبد اليوم من دون الله فلولا ما يفعله المشركون عندها وما يعتقدونه فيها لما زاد عن كونها قبورا لأناس كانوا أحياء يأكلون ويشربون ويحتاجون لما يحتاج إليه البشر الضعفاء فماتوا وقُبروا في هذه القبور وهي كغيرها من سائر القبور الأخرى، ولكن المشركين عظموها وغلوا في محبة أصحابها حتى عبدوهم مع الله فصارت آلهة تعبد مع الله الواحد الأحد وطواغيت تقدس من دون الله.

فهل تستقيم البراءة منها دون البراءة ممن اتخذها وصيرها آلهة من دون الله؟

هل يصح في الفطر السليمة والعقول المستقيمة والملة الحنيفية أن نعتقد أن هذه القبور آلهة باطلة لا تستحق شيئًا من العبادة وأن عبادتها كفر وشرك بالله تناقض الإسلام وتبطله، ولا نعتقد كفر وضلال من عبدها ، بل نجعلهم في زمرة الموحدين ونساويهم بمن يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئًا ويكفرون بما يعبد من دونه ؟ !

هل يستوي من يكفر بهذه القبور مع من يعبدها ؟ !

كلا والذي رفع السماء بغير عمد، لايستوي دين من وحد الله وكفر بما يعبد من دونه مع دين من جهل التوحيد وجعل مع الله آلهة أخرى.

قال تعالى: (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) (الأنعام:١٩)

وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)." الأنعام: من الآية:١٥٩".

كيف يكون المشرك الذي جعل العبادة شِرْكَةً بين الله وبين خلقه مسلما على دين إبراهيم عليه السلام والأنبياء جميعا ؟؟!!

لقد أعلن جميع رسل الله براءهم من كل من عبد غير الله وكفروا بهم وأبغضوهم وعادوهم، قال تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)(الممتحنة: من الآية٤).

والله عز وجل أمرنا بإتباع ملة إبراهيم، وجعله للناس إماماً، واتخذه خليلاً، وملة إبراهيم هي الحنيفية وهي البراءة من الشرك والمشركين.

كما قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُون َ* إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ)." الزخرف:٢٦:٢٧".

وقال عز وجل: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)." الأنعام:٧٤".

فحكم على أبيه وقومه بالضلال البين؛ لعبادهم الأصنام من دون الله.

وكذلك قوله: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)." الشعراء: من الآية:٧٥: ٧٦:٧٧".

وبرَّأ خليليه إبراهيم ومحمدا عليهما السلام، من كل من خالف دين الإسلام و لم يأتِ بالتوحيد، من اليهود والنصارى والوثنيين.

قال تعالى: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)." آل عمران:٦٧".

وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)." الأنعام: من الآية:١٥٩".

وقال عز وجل: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)." يوسف:١٠٨".

فكل من أشرك بالله وعبد معه غيره فالله ورسله بريئون منه وكذلك سائر المؤمنين.

والله عز وجل لا يقبل غير الإسلام دينا، ولا يصح إسلام بلا توحيد، فكل من لم يعبد الله وحده مخلصا له الدين فليس من المسلمين، فوجب البراءة منه ومما يدين به، والحكم عليه بأنه من المشركين.

قال تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ)." آل عمران: من الآية:١٩". وقال سبحانه: (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا)." آل عمران: من الآية:٢٠".

وقال تعالى: (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا)." البقرة: من الآية:١٣٧". فأصل الدين واحد لا يتغير، وكل مسلم لابد أن يأتي بهذا الأصل الذي اتفقت عليه جميع الرسالات وإلا لم يكن من المهتدين.

قال تعالى: (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)." الأنعام: من الآية:٨٨". فلا يصح مع الشرك عمل ولا عبادة ولا دين.

وقال سبحانه: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)." الأنعام:٨٢". فلابد في صحة الدين من إيمان صحيح لا يخالطه شرك.

وقال تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً)." النساء: من الآية:١٢٥". وهذا هو الإسلام دين الله، لأنه ليس لله إلا دين واحد، وهو أحسن الأديان، فدل على أن من استسلم لله وحده واتبع ما جاءت به رسله وكان على الحنيفية ملة إبراهيم متبرئاً من الشرك وأهله فهو المسلم؛ وما سواه فمشرك كافر.

الشرك والتوحيد ضدان لا يجتمعان أبدا ، فترك الشرك الأكبر كله شرط في صحة الإسلام، ولا يجادل في هذا من عرف الله وما جاءت به رسله.

وقد أمر الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يتبرأ من الكافرين، وأن يصارحهم بهذه البراءة، فقال تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ* وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)." الكافرون:١:٦".

وهذه السورة يسميها العلماء سورة التوحيد، فهي براءة من الشرك والمشركين.

وفيها:

مصارحتهم ومخاطبتهم بأهم كافرون بالله: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ).

البراءة من عبادتهم وهي الشرك بالله ومن معبوداتهم: (لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُون).(وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُم)

وصفهم بأنهم لا يعبدون الله، ولو زعموا أنهم يعبدونه وأنهم على دينه: (وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ).

فعبادة المشرك باطلة كلها غير مقبولة حتى ما كان منها لله، لأن شركه بربه وخالقه قد أحبط عمله كله، وأخرجه من دين الله الذي لا يقبل سواه.

وإذا تأملت قوله تعالى: (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)." لقمان: من الآية:٣٢". علمت أن المشرك يعبد الله ويعبد غيره، فلا يكون عابداً لله ولا مسلما له، لأن العبادة والإسلام لا يصح إلا بترك الشرك والبراءة منه، فتأمل هذا جيداً.

وختم الله عز وجل هذه السورة بقوله تعالى: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ). فدين من وحد الله فَعَبَدَه وحده و لم يشرك به شيئا هو الإسلام، ولا يمكن أن يجتمع مع من أشرك بالله على دين واحد أبداً، ولا يمكن أن يستويان أبداً، بل

كل واحد منهما متبرئ مما عليه الآخر، ولا يشاركه فيه، فلا يمكن أن يكون الموحد عابد لغير الله، ولا يمكن أن يكون المشرك عابداً لله وحده.

فكيف يصح مع هذا كله القول بأن البراءة من المشركين ليس من أصل الدين ويمكن أن يتحقق الإسلام من غير هذه البراءة؟!!

وكيف يقبل العقلاء القول بأن الحكم بالإسلام لمن عبد غير الله وجعل معه آلهة أخرى لا يعارض الإسلام الذي بعث الله به رسله وأنبياءه؟!!

لا والله ، لا يصح هذا ولا يُقبل ، وليس هذا من دين الله في شيء .

هذه هي حقيقة الكفر بما يعبد من دون الله، وهي الصفة الشرعية للكفر بالطاغوت الركن الأول في التوحيد، وشطر كلمة الإخلاص لا إله إلا الله.

وقد جعل الله عز وجل الكفر بالطاغوت شرطا لصحة وقبول الإيمان بلا إله إلا الله، فقال تعالى: (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)." البقرة: من الآية:٢٥٦".

وقال عليه السلام فيما يرويه مسلم عن أبي مَالِك الأَشْجَعِيِّ عن أبيه أَنَّهُ سمع رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يقول (من قال لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ من دُونِ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ مَالَهُ وَدَمَهُ وَحِسَابُهُ على اللَّهِ).

الركن الثاني من كلمة التوحيد

إفراد الله بالإلهية وعبادته وحده لا شريك له.

الإله والمعبود سواء بمعنى واحد، قال تعالى: (وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً) (نوح:٢٣) . فهذه الآلهة التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآية هي معبودات قوم نوح وهي تماثيل لرجال صالحين ماتوا فزين الشيطان لمن بعدهم عبادتهم مع الله عز وجل.

وقال تعالى: (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) (صّ:٥) . فالآلهة هنا هي أصنام قريش ومعبوداتهم من دون الله.

وبهذا فسر أهل العلم الإله بأنه المعبود.

والإلهية و الألوهية سواء والمقصود بها العبادة، وهي حق الله الخالص الذي لا يشاركه فيه مخلوق، قال الله تعالى: (وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)." النحل٥١: ٥٢ ".

فليس لأحد في هذا الكون أن يعبد مع الله، فالله وحده خالق هذا الكون ومدبر شئون العباد أجمعين، وهو الواحد القهار. وكما تفرد بالخلق والملك والتدبير وجب إفراده بالعبادة والخضوع.

يقول الطبري في تفسير الآية السابقة: أي لا تتخذوا لي شريكا أيها الناس، ولا تعبدوا معبودين، فإنكم إذا عبدتم معي غيري جعلتم لي شريكاً، ولا شريك لي، إنما هو إله واحد ومعبود واحد، وأنا ذلك.ا.هـ

فالإيمان بالله الذي هو ركن الإسلام الأعظم، ليس معناه الإقرار بوجوده وربوبيته، بل معناه إخلاص العبادة له وحده؛ لأن الذين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإقرار بلا إله إلا الله، وكفّرهم وقاتلهم لما امتنعوا عن ذلك، وأباح نساءهم وأموالهم، كانوا يقرون بأن الله ربهم ورب السماوات والأرض، ورب كل شيء، ولكن كانوا يشركون به في ألوهيته، ويعبدون الأصنام من دونه.

قال الله تعالى: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ)." يونس:٣١". فتأمل إقرارهم بهذا كله ثم قال لهم الله عز وجل: (فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)." يونس:٣٢".

يقول ابن كثير: يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلاهيته.

ويقول الله عز وجل: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)." يوسف:١٠٦". فإيمانهم بالله إقرارهم بربوبيته عليهم وعلى أصنامهم، وشركهم هو عبادة غيره معه سبحانه.

وهذا الأمر من تفكر فيه عرف أن الإيمان بوجود الله وربوبيته لكل ما سواه لا يخرج الإنسان عن الكفر والشرك إلا إذا كان معه الإيمان بألوهية الله وحده، أي عبادته وحده لا شريك له، ولا يكون الرجل مسلما إلا بتوحيد الله في العبادة والكفر بما يعبد من دونه.

واعلم أن الإيمان بالله وحده المذكور في قوله تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)." الممتحنة: من الآية:٤". هو عبادة الله وحده، أي حتى تعبدوا الله وحده، وتتركوا عبادة غيره، وتتبرءوا منها، وممن عبدها. وهذا هو الإيمان بالله المذكور في قوله تعالى: (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (البقرة: من الآية٢٥٦)، وهو المقصود بالإثبات الذي هو الركن الثاني من كلمة التوحيد (إلا الله).

فكيف يتم الإيمان بالله وحده ليتحقق ركن الإثبات في شهادة التوحيد لا إله إلا الله؟

والجواب أن ذلك يتحقق بأن تعتقد أن الله هو الإله المعبود وحده لاشريك له، وأن كل ما سواه عبد مملوك، ليس له من العبادة شيء، فعبادته مع الله باطلة وضلال مبين، وتعمل بهذا الاعتقاد مخلصا عبادتك كلها لله وحده، وتوالي وتعادي على ذلك، فتوالي أهل الإخلاص وتعادي أهل الإشراك.

ولا يصح هذا الاعتقاد حتى تؤمن بأن الأمر والتشريع والتحليل والتحريم والحكم بين العباد لله وحده لا شريك له، وأن جميع أنواع العبادة من دعاء وذبح ونذر وطواف ومحبة وخشية وإنابة وتوبة وركوع وسجود وجهاد وغيرها له وحده لا يشاركه في ذلك أحد من خلقه.

فالله عز وجل جعل الأمر والتشريع والتحليل والتحريم والحكم له وحده لا يشاركه فيه أحد من خلقه، وجعل الرسل مبلغين عنه وداعين إليه، يأمرون بأمره ويحكمون بحكمه، وليس لهم أن يخالفوا شيئا من أوامره.

قال تعالى: (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)." لأعراف: من الآية٥٤". وقال: (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)." يوسف: من الآية:٤٠". وقال سبحانه: (وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)(الكهف: من الآية٢٦)

وسمّى الذين ينازعون الله هذا الحق بالشركاء والأرباب من دونه كما قال تعالى: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهِ)." الشورى: من الآية:٢١".وقال عز وجل:(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ)." التوبة: من الآية:٣١".

وكذلك جعل العبادة بجميع صورها له وحده لا يشاركه في ذلك أحد من خلقه.

قال تعالى: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً)." الجـــن:١٨". وقال: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)." الكوثر:٢". وقال: (فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)." النحل: من الآية:٥١". إلى غير ذلك.

ولا يكفي مجرد الاعتقاد بذلك للدخول في الإسلام بل لابد من العمل بهذا الاعتقاد، والتزامه وعدم الإخلال به، بأن لا يجعل لله شريكا في شيء من ذلك، فالإسلام لا يتحقق إلا بإخلاص جميع العبادات لله وحده ونفيها عن كل ما سواه، وقبول أحكام الله وتشريعاته ورفض وإنكار كل ما خالف ذلك من تشريعات غيره والكفر بها.

والإخلاص هو التوجه بالعبادة لله وحده وقصده بها، وعدم التوجه بشيء منها لغيره.

فإخلاص الدعاء مثلا أن تدعو الله وحده ولا تدع أحداً سواه فيما لا يقدر عليه إلا الله.

وإخلاص الذبح أن تذبح لله باسمه متقربا له وحده، ولا تذبح لغيره ولا على غير اسمه.

وهكذا في جميع أنواع العبادات.

وأما توحيده في الحكم والتشريع: فهو أن لا تقبل من التشريعات إلا ما كان منه سبحانه، ولا تتخذ من دونه أحداً تطيعه كما يطاع الله عز وجل.

وبيان ذلك في قوله تعالى: (وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ)." آل عمران:من الآية:٦٤". أي لا يطيع بعضنا بعضا في مخالفة أمر الله، أو في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحله، أو قبول ما لم يشرعه و لم يأذن به.

فإنك إذا علمت مثلاً أن الله حرم الزنا، وأن التشريع الوضعي يُحلُّه إذا كان بموافقة الطرفين، فإنك إن كنت موحداً أطعت الله في تحريمه، ورددت تحليل غيره وتشريعه، وتبرأت منه وكفرت به وبمن شرعه، أما إن أطعت من حلل ما حرم الله، فقد أشركت بربك وخالقك حيث جعلت الطاعة لغير حكمه وشرعه، كما قال تعالى: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ). " الأنعام: من الآية:١٢١". أي إن أطعتموهم في تحليل الميتة التي حرمها الله، فذلك هو الشرك الأكبر.

فالذين يجعلون لأنفسهم حق التشريع بغير إذن الله، ويغيرون أحكامه، ويبدلون شرعه، ويأمرون بما يخالف دينه، ويحكمون بين الناس بأهوائهم وتشريعاتهم معرضين عن شريعة الله، كل هؤلاء مشركون بالله كافرون به سبحانه، ليس لهم من الإسلام نصيب، لأن الإسلام هو الاستسلام لله بعبادته وحده بما يوافق شرعه، و ألا تجعل من دونه رباً ولا حَكَماً ولا مشرعاً ولا محللاً ولا محرماً.

وكذلك أيضاً الذين يتبعون هذه التشريعات والأحكام المخالفة لدين الله، ويحكمون بها ويتحاكمون إليها، ويرضون بها، ولا يكفرون ويتبرؤون منها، فهؤلاء أيضا مشركون بالله، قد اتخذوا من دون الله أربابا يقدمون أوامرهم وتشريعاتهم على شريعة رب الأرباب وخالق كل شيء، كما اتخذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله لما قدموا طاعتهم على طاعة ربهم، فحللوا ما أحل الأحبار والرهبان وحرموا ما حرموه.

والمسلم من استسلم لله وحده بعبادته وحده وقبول تشريعه وحده والكفر بما يعبد من دونه ورفض تشريعات غيره.

ولا يتحقق الإسلام إلا بإخلاص الولاء لله وحده، فالولاء يجب أن يكون خالصا لله فلا يوالي إلا في الله، ولا يوالي إلا على الإسلام، فيوالي المسلمين أولياء الله، ويعادي المشركين أعداء الله.

فالولاء وهو الحب والقرب والنصرة والاتباع لله ولدينه ورسوله وللمؤمنين ، وضده البراء وهو البغض والعداوة والهجر والاعتزال للطاغوت ودينه وقانونه وأوليائه المشركين .

ومن كان ولاؤه لشيء غير الله ودينه فقد أشرك بالله وجعل له أندادا .

فمن والى لقومية، أو قبلية، أو لوطن، أو لشعار، أو لمنهج، أو لفريق، أو لهوى، أو لفكرة ونظرية، أو لدين غير الإسلام، فقد صرف ولاءه لغير الله وجعل له شريكاً.

وعلامة ذلك أنه لا ينظر فيمن والاه أن يكون وليا لله أوعدوه، فولاؤه ليس تبعا لولاء الله، ولا على دين الله.

ولا يستقيم الدين إلا بمحبة أهل الإخلاص وموالاتهم، وبغض أهل الشرك ومعاداتهم.

والله عز وجل يقول لنبيه: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)." يونس:١٠٤:١٠٥". فأمره أن يقول للناس أن دينه عبادة الله وحده، وأمره أن يكون من المؤمنين، ولا يكونن من المشركين.

هذه هي حقيقة الإيمان بالله الركن الثاني من كلمة التوحيد.

وهذا ملخص معنى شهادة التوحيد:

لا إلـــه

الكفر والبراءة من كل ما يعبد من دون الله

١. أن تتبرأ من كل معبود يعبده المشركون مع الله وتكفر به.

٢. أن تتبرأ من عبادة غير الله وتكفر بها وتبغضها وتتركها.

٣. أن تتبرأ ممن يعبدون غير الله وتكفر بهم وتبغضهم وتعاديهم.

إلا اللـــه

الإيمان بالله وحده وإفراده بالعبادة.

١. أن تعتقد أن الله وحده هو المستحق للعبادة لا شريك له

٢. أن تخلص عبادتك لله وحده

٣. أن يكون ولاؤك لله ودينه ورسوله والمؤمنين

الفصل الثاني
في بيان حقيقة الشرك بالله

الشرك بالله هو أن تعدل بالله أحد مخلوقاته في شيء من خصائص الله. يقول الحق تبارك وتعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) (الأنعام:١)

وقال عز وجل: (وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) (الأنعام:١٥٠)
وقال سبحانه: (أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ)(النمل: من الآية٦٠).

فمعنى يعدلون: أي يعدلون بالله غيره فيشركون بعبادتهم إياه غيره.

وهو كقوله تعالى: (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)." الشعراء:٩٧:٩٨". فهذه الآية تبين معنى الشرك وأنه: تسوية غير الله بالله في شيء من خصائصه سبحانه.

يقال من مساواة الشيء بالشيء عدلت هذا بهذا إذا ساويته به عدلا.

وفي الحديث المتفق عليه: عن عبد الله بن مسعود قال سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: ((أن تجعل لله ندا وهو خلقك))

فبيَّن معنى الشرك بأنه جَعْلُ المخلوق نداً لله عز وجل.

ويمكن فهم حقيقة الشرك من مجرد لفظه، حيث أنه يدل على المشاركة في شيء ما بين شيئين أو أكثر، فالشرك بالله هو اتخاذ المخلوق شريكا لله سبحانه في شيء يخص الله وحده.

والآن يمكن تعريف الشرك بتعريف جامع يبين حقيقته:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الاستقامة: وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده. فإنه لم يعدل أحد بالله شيئا من المخلوقات في جميع الأمور، فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك به.ا.هـ

ولكي يسهل عليك معرفة الشرك يجب عليك أن تنتبه إلى أمرين:

الأول: أن الشرك هو أن تعدل بالله تعالى أحد مخلوقاته.

فالشيء الذي هو حق خالص لله تعالى لو جعلته لأحد غير الله كنت ممن أشرك بالله عز وجل.

ومن ذلك قوله تعالى: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ **أَحَداً**)." الجـــن:١٨". فإذا دعوت أحدا غير الله عز وجل لكشف ضر أو جلب نفع لا يقدر عليه إلا الله كنت مشركا بالله عز وجل، مهما كانت درجة هذا المدعو

عند الله، سواء كان ملكا أو نبيا أو صالحا أو غيرهم، قال تعالى:(قُلْ **أَفَغَيْرَ اللَّه** تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ)." الزمر:٦٤". فتأمل قوله (أَفَغَيْرَ اللَّه). يعني كل ما سوى الله لا يستحق العبادة، وذلك يشمل الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم.

الثاني: أن الشرك يكون في شيء من خصائص الله، وليس في كل ما يستحقه الله.

يعني أن الشرك ليس هو تسوية المخلوق بالخالق في كل شيء يخص الله عز وجل، بل في بعض ما يستحقه الله. فلابد من فهم هذا جيداً.

قال تعالى: (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)." الشعراء:٩٧:٩٨". ومعلوم أن هذه التسوية لم تكن في كل ما يستحقه الله، بل في بعض ما يخص الله عز وجل وحده، كالتسوية في المحبة أو الدعاء أو الطاعة، بأن دعوهم مع الله، أو جعلوا أمرهم مطاعاً كما يطاع أمر الله.

وكذلك قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ)." البقرة: من الآية١٦٥". فلم يجعلوا الند هنا مثل الله عز وجل في كل شيء، بل كانوا يحبون أندادهم كما يُحَبُّ الله عز وجل، فالشرك والتسوية هنا في المحبة.

فإذا عرفت ما يجب أن يكون خالصا لله وحده، وعرفت هذين الأمرين (الأول والثاني) تبين لك حقيقة الشرك بالله الذي يجب أن تنفيه وتتبرأ منه ومن أهله لكي يصح لك الإيمان بلا إله إلا الله، ولكي تكون من المسلمين حقا لا مجرد اسم وانتساب.

أنواع الشرك ومظاهره في واقعنا المعاصر

من أنواع الشرك التي ذكرها الله عز وجل في كتابه ليكون المسلم على بيِّنة منها، ويحذر الوقوع فيها، وقد انتشرت هذه الأيام بين من ينتسبون للإسلام انتشارا واسعا وذلك لجهل أكثر مدعي الإسلام بحقيقة التوحيد وما يناقضه من الشرك والتنديد وإعراضهم عن تعلمه وعدم معرفتهم لقدر التوحيد وخطورة الشرك:

النوع الأول: الشرك في العبادة

يقول الله عز وجل: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً)." النساء: من الآية:٣٦". وقال تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)." الإسراء: من الآية:٢٣". وقال تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)(التوبة: من الآية٣١)

فكل ما ثبت أنه عبادة لله عز وجل فصرْفُها لغيره شركٌ به سبحانه، والله لا يغفر أن يشرك به.

ومن أهم العبادات التي صرفها المشركون لغير الله:

١. المحبة: وهي أساس العبادة، فإذا كانت خالصة لله كانت العبادات كلها خالصة له وحده، وإذا اتخذ العبد من دون الله ندا يحبه كما يحب الله جَرَّه ذلك إلى الشرك في سائر العبادات الأخرى؛ قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ)." البقرة: من الآية:١٦٥". فمن أحب مخلوقا مثل ما يحب الله فهو مشرك، وإن كان يقول لا إله إلا الله، ولكن ليس كل محبة لغير الله عبادة إلا إذا ساوى محبوبه بالله، ومثال ذلك محبة أصحاب القبور لمن يعتقدون فيه الولاية من الموتى، فإنهم يعظمونهم تعظيماً شديداً، ويتذللون لهم بتقديم القرابين، ويخشونهم كخشية الله، فهذه المحبة مع التعظيم والتذلل لا تكون إلا لله، فمن جعلها لغيره فقد أشرك، وقد علمتَ أن أساس الدين محبة الله، فمن أحب الله أكثر من كل ما سواه، واستسلم له وحده فقد أتى بالإسلام. وقد ذكر الله عز وجل الأشياء التي تنافس محبتها محبة الله، وقد يجعلها البعض نداً لله إذا قدَّم محبتها على محبة الله، فقال تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ)." التوبة: من الآية:٢٤".

وإذا أردت أن تنجو من هذا الشرك فاجعل حبَّك كله لله، ولا تحب إلا ما يحب الله، ولا تبغض إلا ما يبغضه، وتحب فيه وتبغض فيه، وتوالي أولياءه وتعادي أعداءه.

٢. الدعاء: ويدخل فيه الاستغاثة والاستعانة والاستعاذة، وكل سؤال لغير الله فيما لا يقدر عليه إلا هو سبحانه من جلب نفع أو دفع ضر. قال تعالى: (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)." فاطر:من الآية: ١٤:١٣". فسمى دعاء غيره سبحانه شركاً بقوله: (يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ) وقال تعالى: (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ)." يونس:١٠٦". أي المشركين.

وهناك عبادات أخرى كثيرة توجه بها المشركون لغير الله، كالذبح والتبرك والطواف والنذر والخوف وغيرها.

النوع الثاني: الشرك في الطاعة

يقول الله عز وجل: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ)." التوبة: من الآية:٣١".

روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقه صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله)، قال فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم.

فالمقصود بالطاعة هنا الطاعة في تحليل الحرام أو تحريم الحلال أو قبول تشريع ما لم يأذن به الله، فمن أطاع مخلوقاً في ذلك غير الرسول صلى الله عليه وسلم - فإنه لا ينطق عن الهوى - فهو مشرك، كما بينه الله عز وجل في قوله: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)." الأنعام: من الآية:١٢١".

يقول ابن كثير: وقوله تعالى: (وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)." الأنعام: من الآية:١٢١". أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك.ا.هـ

فمتى علم العبد حكم الله عز وجل فتركه وعدل إلى حكم غيره مع علمه أنه خلاف حكم الله، واختاره على حكم الله عز وجل، فقد جعل لله سبحانه شريكا يطيع أمره ويتبع حكمه كما يطاع أمر الحق سبحانه وتعالى.

وقال تعالى: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)." يّــس:٦٠:٦١". فعبادة الشيطان هنا هي طاعته في معصية الله.

فكل تحليل لما حرم الله أو تحريم لما أحل، وكل تشريع لم يأذن به، وكل حكم يخالف ما أنزله سبحانه فالطاعة في هذا كله واتباعه والموافقة عليه شرك بالله سبحانه.

النوع الثالث: الشرك في التشريع

يقول الله عز وجل: (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ)." يوسف: من الآية:٤٠". ويقول: (وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)." الكهف: من الآية:٢٦".

وقد سمى الله الذين يشرعون للناس ما لم يأذن به (شركاء وأرباباً)؛ لأنهم قد شاركوا الله عز وجل في الحكم والتشريع الذي هو حق خالص لله وحده.

قال تعالى: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ)." الشورى: من الآية:٢١".

وقال سبحانه: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ)." التوبة: من الآية:٣١".

ويدخل في هذا النوع من الشرك تحليل ما ثبت أن الله حرمه، أو تحريم ما أحله، أو إيجاب ما لم يوجبه سبحانه، أو إسقاط ما أوجبه، أو تبديل حد من حدوده أو تغيير شيء من دينه، أو تشريع شيء من دونه.

ويدخل في هذا النوع من الشرك العمل بالقوانين الوضعية، التي جعلها أتباع الشيطان المصدر الرئيسي الأول في الحكم بين الناس في كافة دول العالم حسب ما نعلم، وهي عبارة عن مجموعة من القواعد والأحكام التي شرعها من جعل من نفسه شريكا لخالق الأرض والسماوات، يعارض بها أحكام الله، ويبطل ما شرعه لعبادة وأنزله في كتابه، ولا يخلو أي تشريع وضعي في أي دولة من دول العالم من إباحة ما حرم الله، أو تحريم ما أحله، أو تبديل ما شرعه وتغيير حدوده وأحكامه.

والذين يشرعون من دون الله إما أنهم:

- يريدون أن تكون له الطاعة والعبادة من دون الله أو مع الله، كالشيطان الذي يسعى بكل طاقته أن يتخذ من عباد الله نصيباً مفروضاً يعبدونه من دون الله، والحكام المشرعين الذين يجعلون من تشريعاتهم دينا مطاعا ومتبعا من دون الله.
- أو يدعون الناس لعبادة غير الله، كسدنة الأوثان الذين يدعون لعبادة قبر أو ضريح أو حجر أوشجر مع الله، ودعاة جهنم الذين يعبِّدون الناس لشرائع الطاغوت، ويحثونهم على موالاة وطاعة الحكام الذين جعلوا لأنفسهم حق التشريع مع الله، وطعنوا في أحكامه عز وجل، وعارضوها.

هذه الأنواع الثلاثة من الشرك قد ذكرها الله عز وجل في كتابه، فمن أتى شيئا منها صار مشركا بالله، ولا ينفعه أي ادعاء للإسلام، ولا قول لا إله إلا الله، ولا أداء شعائر الإسلام كالصلاة ونحوها، وأي إسلام يصح مع مناقضة أصله الذي لا يكون إلا به كما سبق إيضاحه.

و كلها تدخل تحت الشرك الأكبر المخرج من الملة، وهذا التقسيم للإيضاح وسهولة الفهم لاغير، والله أعلم.

الفصل الثالث
التوحيد اعتقاد وقول وعمل

من الأصول الثابتة المتقررة أن أصل الدين الذي جاءت به جميع الرسالات واتفق عليه جميع المرسلين واحد ثابت لا يتغير، وهو مدلول كلمة الإخلاص لا إله إلا الله إفراد الله بالعبادة والكفر بما يعبد من دونه.

وقد أخبر الله عز وجل أنه لم يبعث نبياً ولا رسولاً إلا بالدعوة إلى عبادة الله وحده، فقال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)." سورة الأنبياء: ٢٥". وقال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)." سورة النحل: ٣٦". ومعلوم أن عبادة الله وحده واجتناب عبادة الطاغوت والكفر به لا يتحقق بمجرد التلفظ بحروف كلمة الإخلاص، بل لابد من معرفة معناها واعتقاده والعمل به باطناً وظاهراً، وبغير ذلك لا يحصل الإسلام، ولا يكون الرجل من المهتدين، ولا تتم لأحد إجابة المرسلين.

وهذا الذي ذكرناه معلوم من الدين بالضرورة، ولا يخالف فيه من له أدنى علم بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وما دل عليه الكتاب العزيز.

فلا خلاف بين أهل الإسلام أن التوحيد لا بد أن يكون بالقول والعمل، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلما. فإن عرف التوحيد و لم يعمل به فهو كافر معاند، كفرعون وإبليس وأمثالهما، وإن لم يعرفه فهو كافر جاهل، وإن عمل به و لم يعتقده فهو منافق.

فلا بد من معرفة التوحيد واعتقاده والإقرار به والعمل به.

وغياب المعرفة يعني غياب الاعتقاد والإقرار والعمل، أي غياب الإسلام، فالثلاثة مبنية على المعرفة ولا تتحقق بدونها.

وهذا يغلط فيه كثير من الناس اليوم فيظنون أن التوحيد هو مجرد قول لا إله إلا الله باللسان.

وهذه المسألة مسألة كبيرة ليست بالهينة، فأكثر الناس اليوم ليس لهم من التوحيد إلا قول اللسان من غير معرفة ولا اعتقاد ولا عمل، فلا يفيدهم ذلك شيئا.

والأدلة على أن التوحيد لابد أن يكون بالاعتقاد والقول والعمل كثيرة من كتاب الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، نذكر منها:

أ- قول الله عز وجل: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ) . "سورة آل عمران: من الآية:٦٤" .

فهذه الآية دعوة لأهل الكتاب للدخول في الإسلام، والإيمان بلا إله إلا الله، فإن كان مجرد قولها باللسان يكفي للدخول في الإسلام فلا حاجة لدعوة أهل الكتاب إلى هذا كله لأنهم كانوا يقولونها، فكان ينبغي أن تكون دعوتهم للشهادة بأن محمداً رسول الله فيكونوا بذلك من المسلمين, ولكن الملاحظ من هذه الآية غير ذلك، فإن فيها الدعوة إلى لا إله إلا الله وهي كلمة السواء في الآية، والمطلوب منهم ثلاثة أمور وهي:

- أن يعبدوا الله وحده، وهو قول الله تعالى:(أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ).
- ألا يشركوا به شيئا، وهو قوله تعالى: (وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً).
- ألا يطيع بعضهم بعضا في مخالفة دين الله، وهو قوله تعالى: (وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ).

فهل يمكن أن تتحقق هذه الثلاث بالقول فقط من غير معرفة ولا اعتقاد ولا عمل، سبحان الله أين ذهبت عقول القوم.

وكل من قال لا إله إلا الله بلسانه ولم يأتِ بهذه الأمور الثلاث لا يمكن أن يكون من المسلمين، سواء كان من أهل الكتاب أو من غيرهم. فدلالة هذه الآية على أن التوحيد قول وعمل دلالة واضحة.

ب- وكذلك قوله تعالى: (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) . "سورة البقرة: من الآية:٢٥٦" .

والعروة الوثقى هي لا إله إلا الله، ومدلولها الكفر بالطاغوت والإيمان بالله وحده، وقد عرفت كيف يتم الكفر بالطاغوت والإيمان بالله وأنه اعتقاد وقول وعمل.

ت- وقوله تعالى: (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ) ." سورة التوبة: من الآية:٥" . والآية الأخرى: (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (التوبة:١١) .

والتوبة لاتكون إلا بعد معرفة الذنب وإلا فكيف سيتوب من شيء يراه حسنا، فياويح من آخى الجاهل بالتوحيد، ويا ويله يوم يلقى الله كيف أدخله في زمرة الموحدين وهو يشرك بالله.

فالتوبة المشروطة هنا هي التوبة من الشرك بخلع الأوثان والأصنام، والكفر بكل ما يعبد من دون الله، ولابد من التزام شرائع الإسلام أيضا، ولا يعصم دم ومال من أشرك بالله إلا بتحقيقه لهذا الشرط، وإلا فلا إسلام ولا عصمة للدم والمال، قال تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ)." سورة الأنفال: من الآية:٣٩".

ث- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من قال لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ من دُونِ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ مَالَهُ وَدَمَهُ وَحِسَابُهُ على اللَّه)) رواه مسلم .

ففي هذا الحديث شرطان لعصمة الدم والمال هما:

الأول: قول لا إله إلا الله.

الثاني: الكفر بما يعبد من دون الله دون شك أو تردد. (وهو البراءة من الشرك والمشركين وأصنامهم وطواغيتهم).

وقول لا إله إلا الله جاء مقيداً في أحاديث كثيرة بقيود ثقال لا يقبل الله منه هذا القول بدونها وهي:

- العلم بمدلول ما نطق به لسانه
- واستيقان القلب بحقيقة ما دلت عليه هذه الكلمة
- وأن يكون صادقاً في قولها بحيث لا يتخذ مع الله إلهاً آخر وإلا كان كاذباً
- ولابد أيضاً أن يكون محباً لهذه الكلمة وما دلت عليه
- مخلصاً لله وحده
- منقاداً لما جعلت له
- مع قبوله التام لما توجبه عليه من غير ردٍ ولا استكبارٍ ولا عناد .

وكل ذلك لا يتحقق بمجرد التلفظ بحروف كلمة التوحيد، بل لابد من معرفة معناها والعمل بها عقيدة وقولا وعملا.

ومن تأمل دعوة الرسل كلهم وجدها مجتمعة على الأمر باجتناب الطاغوت المعبود من دون الله، وإخلاص العبادة لله وحده، وهذا هو مدلول كلمة الإخلاص فلابد من اعتقاد بطلان الشرك وتركه والبراءة منه ومن أهله، واعتقاد استحقاق الله للعبادة وحده وإخلاص جميع العبادات له وحده، ولم تكن الدعوة إلى مجرد التلفظ والنطق بكلمة الإخلاص.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لقومه قولوا لا إله إلا الله رد عليه قومه بمثل ما رد كفار الأمم السابقة، فقالوا: (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) (صّ:٥) . وقالوا: (وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ) (الصافات:٣٦). فعرفوا أنه لم يرد منهم مجرد كلمة تقال باللسان وإنما أراد أن يوحدوا الله فيعبدوه وحده ويكفروا بما كانوا يعبدون من دونه.

وبعد هذا البلاغ المبين من الله ورسوله للناس كافة يأتي اليوم من يقول:

يكفي في الإسلام النطق بلا إله إلا الله مع الجهل بمعناها والعمل بما يناقضها!!

ويأتي آخر ويقول هذه عقيدة الرسول صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح وأهل السنة والجماعة!!

ويأتي ثالث ويقول على هذا نوالي ونعادي!!!

وإنك لتزداد عجبا إذا علمت أن هذا القول هو قول من يشار إليهم بالبنان في أنحاء ما يسمونه العالم الإسلامي ويعدونهم أعلم أهل زمانهم!!!

واللهِ، لقد فاقوا المرجئة والجهمية ضلالا وما هم من الإسلام في شيء.

الفصل الرابع

أحوال الناس مع هذه الكلمة العظيمة " لا إله إلا الله".

بعد هذا الاستعراض الموجز لحقيقة دين الإسلام، وأصله المتين الذي هو مضمون كلمة الإخلاص, ننظر في عجالة إلى أحوال الناس اليوم وموقفهم من هذا الدين القيم، ليتبين لنا المسلم الحق، ولتستبين لنا سبيل المجرمين، وليتميز الخبيث من الطيب، وليعرف كل من أراد أن يسلك طريق الحق أياً من الناس معه في حزب الله، وأيهم ضده في حزب الطاغوت.

ومن تأمل أحوال الناطقين بهذه الكلمة اليوم وجدهم على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول:

وهم الذين يشهدون أن " لا إله إلا الله" ويعرفون جيداً معنى هذه الكلمة العظيمة وما دلت عليه، ويصدِّقون بقلوبهم باعتقاد جازم لا يخالجه الشك ولا تقدح فيه الشبهات: أنه ما من إله إلا الله الواحد القهار، وأن إلهية ما

سواه باطلة وضلال، ويلتزمون بما دلت عليه هذه الكلمة، ويؤدُّون حق هذه الشهادة، فلا يعبدون إلا الله، ولا يشركون به شيئاً، لا في عبادته وطاعته، ولا في حكمه وتشريعه، ويكفرون بكل طاغوت يعبد ويطاع من دون الله، ويتبرؤون من كل كافر ومشرك عابد لغير الله وإن كان ممن يدعي الإسلام ومن أقرب الناس إليهم، ويكفِّرون من أشرك بالله أو أتى بناقض بيِّنٍ واضحٍ يُبطل عمله ودينه الذي ادَّعاه، ولا يتوقفون في تكفير كل من لم يَدِنْ بالدين الذي بعث به خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم.

وهؤلاء هم المسلمون في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، موالاتهم ولاء لله، ومحبتهم واجبة، ونصرتهم علامة الإيمان، وخذلانهم علامة النفاق.

قال تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً)." سورة النساء: من الآية:١٢٥".

وقال تعالى: (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى)." سورة الزمر: من الآية:١٧".

وقال تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)." سورة فصلت:٣٠".

وقال تعالى:{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ }الأنعام٨٢

الصنف الثاني:

وهم الذين يقولون بألسنتهم: " لا إله إلا الله" ويلتزمون في الظاهر بما دلت عليه هذه الكلمة فلا يعبدون إلا الله، ولا يُظهرون الشرك بالله، ويتبرؤون ممن أشرك بالله في ظاهر الحال، ولا يُظهرون أي ناقض من نواقض الإسلام، ولا يدينون في الظاهر بغير دين الإسلام.

ولكن لا يعتقدون بقلوبهم ما نطقت به ألسنتهم، إما لشكهم وريبهم، وإما بغضاً للحق مع معرفتهم ويقينهم به.

وهؤلاء هم المنافقون، حكمهم في الدنيا على ظاهر الأمر من المسلمين، وفي الآخرة في الدرك الأسفل من النار إن ماتوا على كفرهم ونفاقهم، وإنما كان حكمهم في الدنيا أنهم من المسلمين لأنهم أظهروا ما أظهر المسلمون من الاستسلام لله وحده، و لم يظهروا خلافه.

ولقد ذكر الله عز وجل في كتابه كثيراً من صفاتهم ليكون المسلم على حذر منهم، وحذَّر نبيه منهم بقوله: (هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ)." سورة المنافقون: من الآية:٤".

الصنف الثالث:

وهم أناس يقولون " لا إله إلا الله " وينتسبون إلى الإسلام، ويزعمون أنهم بريئون من كل دين غير دين الإسلام، ولكنهم لا يعرفون معنى ما نطقت به ألسنتهم، و لم يعتقدوا بقلوبهم مدلول هذه الكلمة، و لم يكن قولهم شهادةً منهم واستجابةً للإيمان بما جاءت به رسل الله، و لم يعملوا بما دلت عليه كلمة الإخلاص، بل أعمالهم وأحوالهم على النقيض من ذلك، فكان هذا القول منهم مجرد تلفظ بكلام لم يفقهوا معناه، و لم يقصدوا مدلوله الذي وُضِعَ له، فلا يفيدهم ذلك شيئاً لأنه قول مجرد عن الاعتقاد والعمل، بل إن اعتقادهم وعملهم يناقض قولهم مناقضة صريحة تجعلهم كاذبين في قول لا إله إلا الله.

وهؤلاء لم يعبدوا الله وحده، و لم يخلصوا له الدين، و لم يكفروا بما يعبد من دون الله، بل إنهم أشركوا بالله وعبدوا معه غيره، وآمنوا بالطاغوت وعبدوه من دون الله، و لم يتبرءوا من المشركين بل والَوهم وصاروا منهم.

فهؤلاء ليس لهم من الإسلام إلا مجرد الانتساب إليه فقط، و لم يحققوا شرطاً واحداً من شروط كلمة التوحيد، بل أتوا بالنقيض تماماً لكل شرط، فبجهلهم لمعنى التوحيد الذي دلت عليه كلمة الإخلاص أخلّوا بأعظم شروط النطق بلا إله إلا الله وهو العلم بمدلولها الذي لا يتم الاعتقاد والعمل إلا به، ولا تصح الشهادة بدونه.

والجهل بالتوحيد لا يمكن معه تحقيق أي شرط من شروط لا إله إلا الله، فاليقين لا يكون إلا بالعلم، وكذلك الصدق والمحبة والانقياد والقبول والإخلاص والكفر بما يعبد من دون الله لا يتم شيء من ذلك إلا بعد العلم الصحيح بما دلت عليه.

فكيف يمكن اعتبار هذا الصنف مسلمين بحجة أنهم يقولون لا إله إلا الله؟! وإن كانوا يحسبون أنهم مهتدون، ولا يعرفون أنهم خارج دين الله، فالجهل بحقيقة الدين من أعظم الموانع التي تجعل الإنسان لا يدين بدين الحق. والإسلام هو دين الله الذي لا يقبل سواه، وبه بعث جميع المرسلين، وأساسه وحقيقته ولبه وروحه وقاعدته: عبادة الله وحده والكفر بما يعبد من دونه، وهذا الصنف من الناس لم يدينوا بهذا الدين الذي لا يقبل الله سواه، بل دينهم على النقيض تماماً من هذا الدين.

فليس هو الإسلام قطعاً. ولا يمكن اعتبار شخصين – كل منهم يدين بنقيض ما يدين به الآخر – في دين واحد أبداً.

ومن زعم أن هؤلاء الصنف يمكن أن نسميهم مسلمين لانتسابهم للإسلام وقولهم لا إله إلا الله، فهو من أجهل الناس بدين الله، ولا يعرف ما أرسل الله به رسوله، وما أنزله في كتابه، فإن الله عز وجل جعل دين الأولين والآخرين واحداً لا يتغير في أصله وأساسه أبداً، وأوصى جميع أنبيائه بالاجتماع عليه، وعدم مخالفته والتفرق فيه، واختار خليله إبراهيم عليه السلام ليكون إمام الموحدين، يَأْتَمُّ به كل من بعده من المرسلين، وأوصى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم باتباع ملته، فلا إسلام إلا الذي كان عليه إمام الحنفاء، ولا يقبل الله من العباد من خالف هذا

الدين، ولا خلاف في أن ملة إبراهيم عليه السلام هي عبادة الله وحده والبراءة من الشرك والمشركين، فمن لم يأتِ بهذا لا يمكن أن يكون من المسلمين، بل لا يكون إلا من المشركين الكافرين.

وقد بيَّنَّا فيما سبق حقيقة التوحيد، وكيف يتم الإيمان بلا إله إلا الله، وبينّا أنواع الشرك التي تناقض التوحيد وتنافي الإيمان، فمن عرف ذلك لم يتوقف لحظة واحدة في تكفير هذا الصنف من الناس، بل إن من عرف التوحيد ودان به لا يشك في كفر من لم يكفّر هذا الصنف وزعم أنهم من المسلمين.

فهذه الأصناف الثلاثة لا يخرج كل من قال لا إله إلا الله عن واحد منها:

- إما أن يقولها بلسانه وهو يعرف معناها ويعتقده ويعمل به وهذا هو المسلم الموحد الحنيف.
- وإما أن يقولها بلسانه ويعمل بها ظاهراً مع مخالفتها بباطنه وهذا هو المنافق.
- وإما أن يقولها بلسانه ويعمل بما يناقضها وهذا كافر مشرك.

خاتمة البحث

يمكن تلخيص ما سبق بيانه في نقاط رئيسية يدور حولها هذا البحث وهي:

- أن الدين عند الله واحد، ولا يقبل من العباد غيره، وهو الإسلام: أي الاستسلام لله وحده بعبادته وحده والبراءة من الشرك وأهله.
- أن هذا الدين هو دين جميع المرسلين، وهو ملة جميع الموحدين من الأولين والآخرين.
- أن أصل هذا الدين وقاعدته هو كلمة التوحيد لا إله إلا الله وعليها مدار الدين كله.
- أن الإسلام لا يكون بمجرد التلفظ بحروفها، بل لابد من معرفة معناها والعمل بمقتضاها ظاهراً وباطناً، والتزامه وعدم مخالفته.
- أن الإسلام لا يصح إلا بالكفر بما يعبد من دون الله.
- أن الكفر بما يعبد من دون الله، هو البراءة من كل معبود غير الله ومن عبادته وعابديه.
- أن البراءة من الشرك لا تكون إلا باعتقاد بطلان عبادة غير الله، وبغضها، وتركها واجتنابها بالكلية، والبراءة ممن أشرك بالله.
- أن البراءة من الشرك والمشركين متلازمتان ولا يكون الرجل مسلماً إلا بهما جميعاً.
- أن من أشرك بالله لا يمكن أن يكون من المسلمين وإن قال بلسانه لا إله إلا الله وزعم أنه من المسلمين.
- أن تكفير من كان هذا حاله، وبغضه وعداوته، هو معنى البراءة من المشركين، ولا يتحقق الإسلام بدونه.

- أن أحكام الناس في الدنيا على ظاهر الأمر، فمن أظهر الإسلام و لم يظهر ما يناقضه حكمنا له بالإسلام، ومن أظهر الشرك والكفر حكمنا له به، و لم يكلفنها الله غير ذلك.

واعلم أن حجة الله قائمة على الناس بمبعث أخر المرسلين، وإنزال القرآن الكريم، فكل من سمع بالنبي صلى الله عليه وسلم وتمكن من معرفة ما جاء به، فقد قامت عليه الحجة سواء علم أم جهل . قال تعالى: (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)." النساء: من الآية:١٦٥".

وقال عز وجل: (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)." الأنعام: من الآية:١٩". فمن بلغه القرآن فهو نذير له وحجة عليه.

وعن أبي هُرَيْرَةَ عن رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قال: ((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ من هذه الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ ولا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ و لم يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إلا كان من أَصْحَابِ النَّارِ)) رواه مسلم .

وأما الذين لم تقم عليهم الحجة فهم: من لم تصلهم آثار الرسالة، ومن وصلته و لم يتمكن من معرفة ما جاء به الرسول، كمن كان لا يفهم الخطاب وليس لديه من يترجم له، و لم يستطع إلى ذلك سبيلاً، والأصم والأحمق والمعتوه.

وهؤلاء وإن كانوا معذورين عند الله، فحكمهم في الدنيا على ظاهر الأمر. والله سبحانه وتعالى أعلم

ونسأل الله العظيم أن يهدينا وسائر أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى دينه القويم، ويجنّبنا طريق المغضوب عليهم والضالين.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه: أبو الفضيل ناصر الدين بن عبد الرحمن النعيمي